الباب التاسع

في الفرق بين الفتح النوراني والظلماني

وما يتبع ذلك من تقسيم النوراني إلى فتح أهل الكمال

وإلى فتح من هو دونه

وما ينجر إليه الحديث من الفرق بين المجذوب والأحمق

مع استوائهما في ذهاب العقل عنهما

وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالمفتوح عليهم

اعلم وفقني الله وإياك أنه قد سبق في أثناء هذا الكتاب المبارك أمور كثيرة من أمور الفتح، متفرقة في أبوابه لمناسبة لها مع تلك الأبواب، فلم تمكن إعادتها في هذا الباب خيفة التكرار مع كثرتها جدًّا، فلتراجع في محالها، لا سيما ما كتبناه في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٤٢] مما يشاهد المفتوح عليه من الأمور الباطلة الفانية الظلمانية، والأمور الثابتة الباقية النورانية، وما في ذلك من التفاصيل، فليراجع ولا بد.

وكذلك أيضًا ما كتبناه في مسألة من ادّعى رؤية النبي ﷺ يقظة، فإنه نفيس جدًّا، فراجعه في أول الباب الخامس في السؤال الثاني منه.

وكذا ما كتبناه في مسألة: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»[1]، فإنه متعلق بفتح أهل الكمال.

والغرض الآن ذكر ما لم يتقدم له ذكر مما يتعلق بهذا الباب، فنقول:

ـ سألته ﷺ عما يذكره سقراط وأبقراط وأفلاطون وجالينوس، وغيرهم من الحكماء وفلاسفة الكفر، في العالم العلوي، مثل كلامهم في النجوم وسيرها وموضع أفلاكها، وقولهم: إن القمر في الفلك الأول، وعطارد في الثاني، والزهرة في الثالث، والشمس في الرابع، والمريخ في الخامس، والمشتري في السادس، وزحل في السابع، إلى غير ذلك مما

(١) تقدم تخريجه.

يحكمون به في القرانات وأمور تعديل الفلك، من أين لهم ذلك؟ مع أنه غيب محض، إذ ليس مما يدرك بالحواس ولا بأدلة النظر، وهم يستندون في ذلك إلى وحي من الله تعالى لبعض أنبيائه، وما يحكى في ذلك عن سيدنا إدريس على نبينا ﷺ لا يفي بتفاصيل ما ذكروه، مع أن النسبة إلى سيدنا إدريس بعدت مسافتها، والتواتر في طريقها منتف بالضرورة، وخبر الآحاد فيها لا يجدي شيئًا، إذ هذا المخبر إن كان من الفلاسفة فهم أهل كفر، وخبر الواحد لا يقبل إلا من العدل، وإن كان من غيرهم فهذا الغير لا يعلم كفره من إيمانه.

فقال ﷺ: إن الله تعالى خلق الحق والنور وخلق لهما أهلاً، وخلق الظلام والباطل وخلق لهما أهلاً.

فأهل الظلام يفتح لهم في الظلام ومعرفته وجميع ما يتعلق به، وأهل الحق يفتح لهم في الحق ومعرفته وجميع ما يتعلق به. والحق هو الإيمان بالله تعالى، والإقرار بربوبيته، والتصديق بأنه يخلق ما يشاء ويختار، مع الإيمان بالأنبياء والملائكة وجميع ما يتعلق برضاه ﷻ والظلام هو الكفر وكل قاطع عن الله ﷻ ومنه الدنيا والأمور الفانية، والحوادث التي تكون فيها، وكفاك دليلًا على ذلك لعن النبي ﷺ لها حيث يقول: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ الله وَمَا وَلَاهُ**»[1].

وإن الحق نور من أنوار الله ﷻ تسقى به ذوات [أهل الجنة وهم][2] أهل الحق، فتتشعشع أنوار المعارف في ذواتهم، وأن الباطل ظلام تسقى به ذوات أهل الباطل فتسود عقولهم وتعمى بصائرهم عن الحق، وتصم آذانهم عن سماعه، بل لا يقع في عقولهم ولا يخطر ببالهم، وإنما الحق عندهم بمنزلة شيء في طي العدم لم يسمع به قط، فغفلتهم عن الحق كغفلة ذوي العقول عن مثل هذا الذي هو في طي العدم على الصفة السابقة، ولذلك يفتح على أهل الباطل في مشاهدة هذا العالم سمائه وأرضه، ولا يشاهدون فيه إلا الأمور الفانية المتعلقة بالأجرام الحادثة و[هيآتها][3] مثل ما يذكرونه في أحكام النجوم مثل النجم الفلاني

---

(١) أخرجه الترمذى (٤/ ٥٦١ رقم ٢٣٢٢) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٢/ ١٣٧٧ رقم ٤١١٢)، قلت: إسناده حسن.

(٢) سقطت من (أ).

(٣) حياتها.

موضعه في الفلك كذا، وأنه إذا قارنه نجم كذا كان كذا وكذا، ومثل نسبة لغة العرب إلى برج العقرب، ولغة العجم إلى المريخ، وغير ذلك.

وأمّا قبر النبي ﷺ والنور المستمد منه إلى قبة البرزخ، وذوات الأولياء العارفين بالله تعالى، وأرواح المؤمنين الكائنة بأفنية القبور، والحفظة الكرام الكاتبين، والملائكة الذين يتعاقبون فيها، وغير ذلك من أسرار الحق الموصلة إلى الله تعالى التي وضعها في أرضه، فلا يفتح لهم في معرفتها ولا تقع في عقولهم أبدًا؛ لأن الله تعالى سقاهم بالظلام وقطعهم عن معرفته بالكلية حتى أن المبطل المذكور لو نظر إلى لوح مكتوب فيه كلام الله ﷻ الذي هو نور وشفاء لما في الصدور لشاهد ببصيرته المكسوفة المقطوعة جرم اللوح دون حروف القرآن العزيز المكتوبة، وكذلك لا يشاهد أهل الظلام شيئًا من أسرار الحق ﷻ التي وضعها في سمائه، ولا يشاهدون شيئًا من الملائكة، ولا يسمعون تسبيحهم، ولا يشاهدون الجنة ولا القلم ولا اللوح ولا أنوار الحروف الخارجة من القلم، وكذلك لا يعرفون الحق ﷻ الذي هو خالقهم.

وبالجملة: فقد حجبهم الحق ﷻ عن نفسه، وعن كل ما يوصل إليه، وفتح عليهم في غير ذلك مما يضرهم ولا ينفعهم، فأخبار الفلاسفة لعنهم الله عن العالم العلوي من هذا الوادي، وكل ما حكموا به في ذلك فهو خطأ حيث نسبوا ذلك للنجوم، وإنما الفاعل لذلك هو الله تعالى الذي هو خالق النجوم؛ ولذا قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكِبِ**»(١).

فالفلاسفة لعنهم الله حجبهم الحق ﷻ عن معرفته، وعلق عقولهم بالكواكب ليشغلهم بها، حتى ينفذ فيهم الوعيد السابق، مع أن الربط الذي يذكرونه في أحكام النجوم ـ وإن كان من فعله تبارك وتعالى ـ فقد كان منه البعض وأخطأوا في الكثير منه.

وأمّا أهل الحق فلهم فتح في أول الأمر وفي ثاني الأمر.

أمّا الفتح في أول الأمر: فجميع ما سبق فتحه لأهل الظلام في هذا العالم سمائه

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١١٧، رقم ١٧١٠٢)، والبخاري (١/ ٢٩٠، رقم ٨١٠)، ومسلم (١/ ٨٣، رقم ٧١)، والنسائي (١/ ٥٦٢، رقم ١٨٣٣)، والشافعي (١/ ٨٠)، وأبو داود (٤/ ١٦، رقم ٣٩٠٦).

وأرضه، فيشاهد صاحب هذا الفتح الأرضين السبع وما فيهن والسماوات السبع وما فيهن، ويشاهد أفعال العباد في دورهم وقصورهم، لا يرى ذلك ببصره وإنما يراه ببصيرته التي لا يحجبها ستر ولا يردها جدار، وكذا يشاهد الأمور المستقبلة مثل ما يقع في شهر كذا وسنة كذا، وهؤلاء وأهل الظلام في هذا الفتح على حد سواء؛ ولذا يقال: الكشف أضعف درجات الولاية؛ أي: لأنه يوجد عند أهل الحق ويوجد عند أهل الباطل، وصاحبه لا يأمن على نفسه من القطيعة واللحوق بأهل الظلام حتى يقطع مقامه ويتجاوزه.

وأما الفتح في ثاني الأمر: فهو أن يفتح عليه في مشاهدة أسرار الحق التي حجب عنها أهل الظلام، فيشاهد الأولياء العارفين بالله تعالى، ويتكلم معهم، ويناجيهم على بعد المسافة مناجاة الجليس لجليسه، وكذا يشاهد أرواح المؤمنين فوق القبور، والكرام الكاتبين، والملائكة، والبرزخ، وأرواح الموتى التي فيه، ويشاهد قبر النبي ﷺ وعمود النور الممتد منه إلى قبة البرزخ، فإذا حصلت له مشاهدة ذات النبي ﷺ في اليقظة، حصل له الأمان من تلاعب الشيطان لاجتماعه مع رحمة الله تعالى وهي سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ.

ثم اجتماعه مع الذات الشريفة سبب إلى معرفته بالحق ﷻ ومشاهدة ذاته الأزلية؛ لأنه يجد الذات الشريفة غائبة في الحق هائمة في مشاهدته ﷻ فلا يزال الولي ببركة الذات الشريفة يتعلق بالحق ﷻ ويترقى في معرفته شيئًا فشيئًا، إلى أن تقع له المشاهدة وأسرار المعرفة وأنوار المحبة.

فهذا الفتح الثاني هو الفاصل بين أهل الحق وأهل الباطل،وأمّا الفتح الأول فإنه كما يقع لهم يقع لأهل الظلام، فيقع لهم الفتح في مشاهدة الأمور الفانية ويتمكنون من التصرف فيها، فنرى المبطل يمشي على البحر ويطير في الهواء ويرزق من الغيب وهو من الكافرين بالله ﷻ، وذلك أن الله تعالى خلق النور وخلق منه الملائكة، وجعلهم أعوانًا لأهل النور بالتوفيق والتسديد وخرق العوائد، وكذلك خلق الظلام وخلق منه الشياطين، وجعلهم أعوانًا لأهل الباطل بالاستدراج والمزيد في الخسران والتمكن من الخوارق.

قال ﷺ: وعلى هذا تخرج حكاية اليهودي الذي كان مع إبراهيم الخواص ﷺ في سفينة، فتعارفا وترافقا في العشرة، فقال له اليهودي: إن كنت صادقًا في دينك فهذا البحر

فامش عليه فأنا ماش عليه، فقام اليهودي يمشي فوق الماء، فقال إبراهيم الخواص: واذُلّاه إن غلبني اليهودي، ثم رمى بنفسه فوق البحر، فأعانه الله ﷻ ومشى كما مشى اليهودي، ثم إنهما خرجا من البحر، فقال اليهودي لإبراهيم الخواص: إني أريد منك الصحبة في السفر، فقال إبراهيم: لك ذلك، فقال اليهودي: بشرط ألّا ندخل المساجد لأني لا أحبها، ولا ندخل الكنائس لأنك لا تحبها، ولا ندخل مدينة لئلا يقول الناس اصطحب مسلم ويهودي، ولكن نجول الفيافي والقفار ولا نتخذ زادًا، فقال إبراهيم: لك ذلك، فخرجا إلى الفلوات، ثم بقيا ثلاثة أيام لم يذوقا شيئًا.

فبينما هما جالسان إذ أقبل كلب يمشي إلى اليهودي وفي فمه ثلاثة أرغفة، فطرحها بين يديه وانصرف، قال إبراهيم: فلم يعرض علي أن آكل معه، فبقيت جائعًا، ثم إنه أتاني شاب من أحسن الناس شبابًا وأطيبهم رائحة وأحسنهم وجهًا وأحلاهم منظرًا، وفي يده طعام ما رؤي مثله، فطرحه بين يدي وانصرف، فعرضت على اليهودي أن يأكل معي فأبى، فأكلت، ثم قال اليهودي: يا إبراهيم إن ديننا ودينكم على الحق، وكل منهما يوصل وله ثمرة إلا أن دينكم أرق وألطف وأبهى وأحسن، فهل لك أن أدخل فيه. قال: فأسلم، وكان من جملة أصحابنا المتحققين بالتصوف.

هكذا ذكر الحكاية أبو نعيم في الحلية في ترجمة إبراهيم الخواص.

فسألت شيخنا ﷺ عن ذلك، فقال: خلا دار أبيهم، إنما الشياطين تلعب بهم فظنوا أن لعبادتهم على دينهم ثمرة.

ثم ذكر الكلام السابق، وكيف حال أهل الحق، وكيف حال أهل الباطل، ولا مطلب للمرء وراءه، والله أعلم.

وقال ﷺ: إن أصل علوم الفلسفة وما حكموا به في العالم العلوي ونحو ذلك، هو أن رجلاً كان في زمن سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ فآمن به وجعل يسمع منه أمورًا تتعلق بالفتح في ملكوت السموات والأرض، ثم لم يزل ذلك دأبه إلى أن وقع له هو أيضًا الفتح، فوقف مع ما شاهد من العالم وانقطع عن الحق ﷻ وخسر الدنيا والآخرة، وجعل يفرح بما يشاهد في العالم العلوي، ويذكر مواضع النجوم ويربط بها الأحكام، ورجع عن دين إبراهيم، فتلقى ذلك منه من أراد الله خذلانه إلى أن بلغ إلى الفلاسفة الملعونين.

قال ﷺ: واشتد غضب الله على ذلك الرجل؛ لأنه دل على غير الله، وكل من دل على غير الله فهو من القاطعين عن الله تعالى.

قال ﷺ: إن فائدة الرسالة والنبوة خصلة واحدة، وهي الدلالة على الله ﷻ والجمع عليه، حتى إنا لو فرضنا فرضا مستحيلًا في ذات أمرت برسالة ونبوة، ثم جعلت تدل على غيره تعالى، أو جعلت تجمع الناس على نفسها وتقطعهم عن الحق ﷻ فإنها تنقلب إلى الوصف السابق في ذلك الرجل، وهذا الفرض المستحيل ذكرناه على سبيل المبالغة للتنفير من الدلالة على غيره تعالى.

ثم قال ﷺ: وكنا نمشي على قنطرة باب الحديد أحد أبواب فاس ، حرسها الله بمنه .

فقال: ما فائدة هذه القنطرة؟

* **قلت**: المشي عليها حتى يخلص من المهواة التي تحتها، فيبلغ الماشي عليها إلى مقصوده من الأرض.

قال ﷺ: ولو ارتفعت منها هذه الفائدة كانت ضررًا محضًا على الناس؟

* **قلت**: نعم.

قال ﷺ: فكذلك الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون وسائر عباد الله الصالحين، فائدتهم الدلالة على الله والجمع عليه، ولو ارتفعت منهم هذه الفائدة كانوا على الصفة السابقة في القنطرة، والله أعلم.

وقال ﷺ: إن الكاملين من أهل الحق إذا سئلوا عن مسألة من الحوادث التي ستقع لم يتكلموا فيها إلا بالنزر من القول؛ لأنه أول أمر شاهدوه، وقد شاهدوا الحق بعده فعلموا بطلانه، فهم يكرهونه ويكرهون الكلام فيه، ولأن الدنيا والحوادث الواقعة فيها مبغوضة عند الله تعالى، وهم يبغضون ما يبغضه الحق ﷻ وأيضًا فلا يتكلمون فيها إلا بالنزول عن درجتهم كمن ينزل من الثريا إلى الثرى، فإن درجة تلك الحوادث هي درجة فتح أهل الظلام، وأيضًا فإنهم ﷺ لا يشاهدون إلا بأنوار الحق ﷻ ونور الحق يرتفع فيه الزمان وترتيبه ولا ماضي فيه ولا حال ولا مستقبل، فأكثر ما يعلم الولي بنور الحق أن الحادث الفاني واقع لا محالة، وأمّا أنه يقع يوم كذا فلا يحصل لهم إلا بالنزول إلى اعتبار الزمان

وترتيبه وهو من الظلام عندهم بالنسبة إلى نور الحق، ومثل من يفعل ذلك كمثل الشمس إذا نزلت من سمائها إلى الأرض وأخذت مرآة بين عينيها وجعلت تنظر بها.

فقلت: فإن الحق ﷻ يعلم ما سيقع وترتيبه، ويعلم ما في الماضي وما في الحال وما في المستقبل، والولي ينظر بنوره، فينبغي أن يعلم ما سبق من غير نزول إلى درجة الظلام.

فقال ﷺ: يعلم الله ذلك؛ لأنه تعالى أحاط بكل شيء علمًا، والرب تعالى قوي والعبد ضعيف، وعلم العبد قاصر.

وبالجملة: فالعبد لا يقاس بربه تبارك وتعالى، وقد قال سيدنا الخضر لسيدنا موسى، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقصه هذا العصفور بنقرته من البحر.

قال ﷺ: وقد يتكلم الولي بشيء من الحوادث المستقبلة، فيخبر بها نازلًا عن درجته، وليس ذلك بمعصية ولكنه قصور همة وانحطاط عن الذروة العلية، وسوء أدب إن قصد إليها مع النبي ﷺ لأن حالته ﷺ لم تكن كذلك، على أن كثرة الأولياء الكاملين ﷺ إنما يتكلمون فيها غلبة بحكم القدر وتصريف الحق إياهم ﷻ على ما يريد، إذ هم ﷺ مظاهر الحق.

* **قلت**: وأكثر ضرر الخلق في معرفة الأولياء ومخالطتهم من هذا الباب.

أمّا في المعرفة: فإنهم لا يفرقون بين فتح أهل الظلام وفتح أهل الحق، فيحسبون أن كل ما زاد على علومهم من الكشوفات وخرج عن طوقهم من الخوارق كمال وحق وولاية من الله تعالى لمن ظهر ذلك على يديه، ففريق من الناس يعتقدون ولاية من يكاشف ويعتقدون أنه الغاية، وفريق آخر يعتقدون ولاية من استقام في الظاهر ودام على الصيام والقيام، وإن كان باطنه خاليًا من الحق متعلقًا بغيره.

وأمّا في المخالطة: فإن العبد بعد أن يوفقه الله تعالى للاجتماع مع ولي كامل قد يكون غرضه من ذلك الولي عكس المطلوب من الولي، فإن المطلوب منه أن يعرِّف العبد بربه، ويحذره من القواطع التي من أعظمها حب الدنيا والميل إلى زخارفها، فإذا جعل العبد يطلب منه قضاء الحوائج والأوطار اليوم على اليوم والسنة على السنة، ولا يسأله عن ربه

ولا كيف يعرفه، مقته الولي وأبغضه، فهو السالم إن نجا من مصيبة تنزل به، وذلك لأمور:

أحدها: إن محبته للولي ليست لله ﷻ وإنما هي على حرف، والمحبة على حرف خسران مبين تكون معها الوساوس وتحضرها الشياطين، ولا ينزل عليها نور الحق أبدًا.

ثانيها: إن الولي يراه في تعلقه بالدنيا في عين القطيعة، وهو يريد أن ينقذه منها، والعبد يطلب أن يزيده منها.

ثالثها: إن الولي إذا ساعفه في قضاء بعض الأوطار، وقابله ببعض الكشوفات، وقع للعبد المسكين غلط، فيظن أن هذا هو الذي ينبغي أن يقصد من الولي، وكل ذلك ضلال ووبال.

وقد سمعت شيخنا ﷺ **يقول**: إنما مثل الولي كمثل رجل عمله صنعة الفخار، فيه يحرك يده وتعمل جوارحه، ومع ذلك فعنده الخزائن التي يحتاج إليها الناس من طعام وغيره، والخزائن وإن كانت عنده فقلبه معرض عنها، لا تقع عنده ببال ولا تساوي عنده شيئًا، ولا يحب الكلام إلا في عمل الفخار وصنعته، ويكره غاية من يتكلم معه في غيره ويبغضه حتى يخاف ذلك المتكلم أن يناله ضرر من الرجل المذكور، فإذا جاءه رجلان وقد علما حالته وبغضه للكلام في غير عمل الفخار، وأرادا منه شيئًا من تلك الخزائن، فالموفق منهما والكيس هو الذي يتكلم معه في عمل الفخار، ويسأله عن صنعته وكيف يعمل، ولا يزال هذا دأبه حتى يناله من الرجل محبة عظيمة ومودة كبيرة، فإذا سأله بعد ذلك شيئًا من تلك الخزائن مكنه منه ولا يقع له ضرر، وغير الموفق منهما هو الذي يأتي لذلك الرجل، ويطلب منه أولًا شيئًا من تلك الخزائن ويتكلم معه فيها، فإنه إن سلم من ضرب الرجل له بفخارة على رأسه كان هو السعيد، وكان ربحه هو سلامته لا غير، فهذا مثل الولي لا صنعة له ولا حرفة له إلا معرفة الحق، وما يوصل إليه، ولا يحب كلامًا إلا فيه، ولا جمعًا إلا عليه، ولا وصولًا إلا منه، ولا قربًا إلى إليه، فمن عرفه على هذا ربح منه الدنيا والآخرة، ومن عرفه على غير هذا كان على العكس.

ـ **وسألته** ﷺ: لم كانت هذه الحوادث من الباطل وهي أمور ثابتة تشاهد بالعيان وتدرك بالحواس والباطل هو الذي لا أصل له.

فقال ﷺ وقد أشار إلى حائط: أليس أنا نشاهد هذا وهو يفنى ويزول، ولا نشاهد

ربه الذي هو خالقه وماسكه بقدرته، وهو الحي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو الخالق لنا والمتصرف فينا بما شاء. فمشاهدة مثل هذا الحائط الذي لا ينفع ولا يضر مع عدم مشاهدة الحق ﷻ مشاهدة باطلة، والبطلان فيها نسبي؛ أي: ما شهدناه كالعدم بالنسبة إلى ما لم نشاهده، وقد سبق أن مشاهدة اللوح دون الحروف المكتوبة فيه مشاهدة باطلة، فمن رحمه الله تعالى فتح عليه في مشاهدة ذاته العلية، وصفاته السنية، وأفعاله الزكية، فتعلق بربه فحيي حياة لا يشقى بعدها ولا يموت؛ لأن الفاني إذا تعلق بالباقي بقي ببقائه، في كلام سبقت الإشارة إليه، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الفتح الأول وإن اشترك فيه أهل الظلام وأهل الحق، لكن المقصود به مختلف، فإن القصد به لأهل الظلام طردهم عن بابه تعالى وصدهم عن سبيله؛ لأنه تعالى أبغضهم، وقطعهم عنه وعلق قلوبهم بغيره، وأمدهم بهذه الخوارق إملاء واستدراجًا ليحسبوا أنهم على شيء، وأمّا القصد به إلى أهل الحق فليزدادوا فيه محبة وليرقيهم من درجة إلى درجة، وذلك أنه تعالى فتح لهم الباب، وأزال عنهم الحجاب، وعلق قلوبهم به، فأمدهم بتلك الخوارق لتقوى بصيرتهم وتتأكد معرفتهم.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الصغير قد يكون أقوى من الكبير في مشاهدة هذه الحوادث؛ وذلك لأن الكبير غائب عنها فيما هو أقوى منها، وهو مشاهدة الحق ﷻ بخلاف الصغير فإنه يقصد إليها؛ لأنها محل مشاهدته، وإن كانت له مشاهدة للحق ﷻ فهي لا تكون مثل مشاهدة الكبير.

وبالجملة: فالكبير يقوى في مشاهدة الحق ﷻ ويضعف في مشاهدة الخلق، والصغير بالعكس يقوى في مشاهدة الخلق ويضعف في مشاهدة الحق ﷻ.

وعلى هذا يخرج ما وقع بين سيدنا الخضر وبين سيدنا موسى ـ على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ـ مما قصه الله تعالى في كتابه العزيز من أمر السفينة والغلام والجدار، فإن علم ذلك إنما غاب عن سيدنا موسى عليه السلام لأنه في مشاهدة ما هو أقوى منه وهو الحق ﷻ فقدم علم موسى عليه السلام بذلك هو غاية الكمال.

قال: ومثاله مع الخضر في ذلك كمثل عبدين للملك: أمّا أحدهما فضمه الملك إلى نفسه وجعله جليسًا له، لا شغل له إلا الوقوف بين يدي الملك والنظر في وجهه، إذا خرج الملك خرج معه، وإذا دخل دخل معه، وإذا أكل أكل معه، وإذا شرب شرب معه، وإذا تحدث تحدث معه، والعبد الآخر مكنه الملك من التصرف في رعيته، فيخرج للرعية وينفذ فيهم أمر الملك، ويتحدث معهم في أمورهم وما يصلح أحوالهم، وربما غاب عن الملك الغيبة الطويلة لتنفيذ بعض الأمور.

فلا يشك أن العبد الأول أقرب إلى الملك وأعرف بأسرار ذاته من الثاني، مع أنه إذا سئل عن شيء من أمور الرعية وما يدخل فيها وما يخرج، ولا سيما إن بعدت الرعية من مدينة الملك، فإنه لا يعرفه معرفة الثاني، وهكذا كانت حال موسى مع الله تعالى، فإنه مثل العبد الأول، وسيدنا الخضر مثل العبد الثاني، فإن سيدنا موسى أكبر منه قدرًا بلا نزاع؛ لأنه رسول الله وكليمه وصفيه.

فقلت: وهل سيدنا الخضر نبي كما ذهب إليه بعض العلماء، حتى قال الحافظ ابن حجر في «شرح البخاري»: ينبغي اعتقاد نبوته لئلا يكون غير النبي أعلم من النبي.

فقال ﷺ: ليس بنبي، وإنما هو عبد أكرمه الله بمعرفته، وأمره بالتصرف في رعيته، وأعطاه من تمام التصرف وكمال المعرفة ما يعطي للغوث من هذه الأمة المحمدية، وأدرك ذلك الخضر بلا شيخ ولا سلوك، بل أمده الله تعالى بذلك ابتداء فهذه درجته، وهي لا تبلغ مبلغ النبوة ولا الرسالة، وليس في علم الخضر بما سبق في تلك الأمور دون موسى ما يوجب أن يكون غير النبي أعلم من النبي، لما سبق أن موسى عليه السلام شغل عن ذلك بمشاهدة الحق التي لا عوض لها ولا مثيل، فلا يحتاج حينئذ إلى اعتقاد نبوته.

فقلت: والذين قالوا بنبوته استدلوا بقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**﴾ [الكهف:٨٢].

فقال ﷺ: وكل غوث وقطب وغيرهما من أصحاب التصرف لا يفعلون شيئًا ولا يتصرفون في حادث إلا بأمر الله تعالى، وليس ذلك بنبوة ولا رسالة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

ثم بيَّن ذلك بكلام نفيس تركت كتبه؛ لأنه من الأسرار المكنونة التي لا تكتب،

فرضي الله عن شيخنا ما أعرفه بالله تعالى.

* **قلت**: وهذا الجواب الذي ذكره شيخنا ﷺ في عدم علم سيدنا موسى بتلك الأمور، وبيان سر ذلك من الأسرار والأنوار التي يغتبط بمعرفتها.

وعلى هذا يتخرج حكايات تقع لبعض الكاملين مع مريديهم، فإن الكامل قد يستفيد من مريده شيئًا مما يقع في العالم، كقول بعض الأكابر في مريد له: منذ مات فلان غابت عنا أسرار السماء، حتى خلفه مريد آخر، فجعل يخبر بمثل ما يخبر به الأول فقال ذلك الولي الكامل: قد رجع إلينا ما فقدناه، وتركت تسمية ذلك الكامل ومريده لعدم تعلق الغرض بذلك، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: لكل شيء علامة، وعلامة إدراك العبد مشاهدة النبي ﷺ في اليقظة أن يشتغل الفكر بهذا النبي الشريف اشتغالاً دائمًا بحيث لا يغيب عن الفكر، ولا تصرفه عنه الصوارف ولا الشواغل، فتراه يأكل وفكره مع النبي ﷺ ويشرب وهو كذلك، ويخاصم وهو كذلك، وينام وهو كذلك.

فقلت: وهل يكون هذا بحيلة وكسب من العبد؟

فقال ﷺ: لا، إذ لو كان بحيلة وكسب من العبد لوقعت له الغفلة عنه إذا جاء صارف أو عرض شاغل، ولكنه أمر من الله تعالى يحمل العبد عليه، ويستعمله فيه، ولا يحسن العبد عن نفسه اختيارًا فيه، حتى لو كلف العبد دفعه ما استطاع.

ولهذا كانت لا تدفعه الشواغل والصوارف، فباطن العبد مع النبي ﷺ وظاهره مع الناس، يتكلم معهم بلا قصد، ويأكل بلا قصد، ويأتي لجميع ما يشاهده في ظاهره بلا قصد؛ لأن العبرة بالقلب وهو مع غيرهم، فإذا دام العبد على هذا مدة رزقه الله تعالى مشاهدة نبيه الكريم ورسوله العظيم في اليقظة، ومدة الفكر تختلف، فمنهم من تكون له شهرًا، ومنهم من تكون له أقل، ومنهم من تكون له أكثر.

قال ﷺ: ومشاهدة النبي ﷺ أمرها جسيم وخطبها عظيم، فلولا أن الله تعالى يقوي العبد ما أطاقها، لو فرضنا رجلاً قويًا عظيمًا اجتمع فيه قوة أربعين رجلاً، كل واحد منهم يأخذ بأذن الأسد من الشجاعة والبسالة، ثم فرضنا النبي ﷺ خرج من مكان على هذا

الرجل، لانفلقت كبده، وذابت ذاته، وخرجت روحه، وذلك من عظمة سطوته ﷺ.

ومع هذه السطوة العظيمة، ففي تلك المشاهدة الشريفة من اللذة ما لا يكيف ولا يحصى، حتى إنها عند أهلها أفضل من دخول الجنة؛ وذلك لأن من دخل الجنة لا [يرزق][1] جميع ما فيها من النعم، بل كل واحد له نعيم خاص [به] بخلاف مشاهدة النبي ﷺ فإنه إذا حصلت له المشاهدة المذكورة سقيت ذاته بجميع نعيم أهل الجنة، فيجد لذة كل لون، وحلاوة كل نوع، كما يجد أهل الجنة في الجنة، وذلك قليل في حق من خلقت الجنة من نوره ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم وعلى آله وصحبه.

قال ﷺ: وفي كل مشاهدة يحصل هذا السقي، فمن دامت له دام له هذا السقي.

* **قلت**: وكنت أنظر في شمائل الإمام الترمذي ـ رحمه الله ـ وفي شروحها، فإذا اختلفوا في شيء من لونه ﷺ أو طول ذاته، أو طول شعره، أو مشيته، أو غير ذلك من أحواله ﷺ ذهبت إلى شيخنا ﷺ فأسأله عن الواقع من ذلك، فيجيبني جواب المعاين المشاهد، وقد كتبنا بعض ذلك في آخر الباب الأول، والله أعلم.

ومن عجيب أمره ﷺ أني سألته عن هذه الأمور وهو ﷺ مشتغل بتنقية الأشجار وإزالة ما لا يصلح بقاؤه فيها، في صورة المعرض عن سؤالي الذي يرد باله إلى غيره، فما أكمل السؤال عن شيء مما سبق حتى يجيب سريعًا من غير تأمل في كلامي، تحقيقًا لما سبق في قوله إن العبرة بالباطن وكل ما يفعله ظاهرًا فهو بلا قصد، فتنقية الأشجار ونحوها كانت منه ﷺ من غير قصد، وباطنه كان مع الجناب العلي، ولهذا كان لا يتفكر في أمر الجواب، والله أعلم.

قال ﷺ: **وعلامة إدراك العبد لمشاهدة ربه ﷻ أن يقع في فكره بعد مشاهدة النبي ﷺ التعلق بربه، بحيث يغيب فكره في ذلك مثل الغيبة السابقة في النبي ﷺ ثم لا يزال** كذلك إلى أن يقع له الفتح في مشاهدة الحق ﷻ فيقع على ثمرة الفؤاد ونتيجة [الفكر][2]، وإذا كانت ذاته تسقى بجميع أنواع نعيم أهل الجنة عند مشاهدته النبي ﷺ فما ظنك بما يحصل له عند مشاهدة الحق ﷻ الذي هو خالق النبي ﷺ وخالق الجنة وكل شيء.

---

(١) يذوق.

(٢) العمر.

قال ﷺ: ثم بعد الفتح في مشاهدة الحق ﷻ انقسم الناس إلى قسمين:

فقسم: غابوا في مشاهدة الحق ﷻ عما سواه.

وقسم: وهم أكمل غابت أرواحهم في مشاهدة الحق ﷻ وبقيت ذواتهم في مشاهدة النبي ﷺ فلا مشاهدة أرواحهم تغلب مشاهدة ذواتهم، ولا مشاهدة ذواتهم تغلب مشاهدة أرواحهم.

قال ﷺ: وإنما كان هذا القسم أكمل؛ لأن مشاهدتهم في الحق ﷻ أكمل من مشاهدة القسم الأول، وإنما كانت مشاهدتهم في الحق ﷻ أكمل؛ لأنهم لم ينقطعوا عن مشاهدة النبي ﷺ التي هي سبب في الارتقاء في مشاهدة الحق ﷻ فمن زاد في مشاهدته ﷺ زيد له في مشاهدة الحق ﷻ ومن نقص منها نقص له.

قال: ولو كان الاختيار للعبد وكان عمره تسعين سنة مثلاً، لاختار في جميع هذه المدة أن لا يشاهد إلا النبي ﷺ وقبل موته بيوم يفتح له في مشاهدة الحق ﷻ فإنه يحصل له في هذا اليوم من الفتح في مشاهدة الحق ﷻ لأجل رسوخ قدمه في مشاهدة النبي ﷺ أكثر مما يحصل لمن فتح له في المشاهدتين معًا في تلك المدة من أولها إلى آخرها.

ثم جعل ﷺ مرآة بين عينيه، وجعل ينظر في الحروف.

فقال: أليس أن الذي يظهر في الحروف وصفائها في النظر يتبع صفاء المرآة وحسن مائها؟

فقلت: نعم.

فقال ﷺ: فمشاهدة النبي ﷺ بمنزلة المرآة، ومشاهدة الحق ﷻ بمنزلة الحروف، فعلى قدر الصفاء في المشاهدة النبوية يحصل الصفاء ويزول الغمام في المشاهدة للذات الأزلية.

سمعت هذا الكلام منه ﷺ.

وقد سأله بعض فقهاء الأشراف: أيمكن أن يترك الولي الصلاة؟

فقال ﷺ: [معاذ الله] لا يمكن أن يترك الولي الصلاة، وكيف يمكنه ذلك وهو دائمًا

يكوى [بشهابين][1]: فذاته تكوى [بشهاب][2] مشاهدة النبي ﷺ وروحه تكوى [بشهاب][3] مشاهدة الحق ﷻ وكل من المشاهدتين يأمره بالصلاة وغيرها من أسرار الشريعة.

وقال ﷺ **مرة أخرى**: كيف يترك الولي الصلاة والخير الذي حصل له في المشاهدتين إنما حصل له بعد سقي ذاته بأسرار ذات النبي ﷺ وكيف تسقى ذات بأسرار الذات الشريفة ولا تفعل ما تفعله الذات الشريفة ؟ هذا لا يكون.

ثم سمعت منه ﷺ في مشاهدة الحق ﷻ: والنظر بنور الله تعالى، وارتفاع الزمان في ذلك النظر، وأنه لا ماضي ولا حال ولا مستقبل، وكيف مشاهدة الذات العلية وصفاته السنية؟ وكيف تسقى الذات بأنوار الأسماء؟ وانقسام مراتب الولاية على عدد الأسماء، وفي فتح الروح، إلى أسرار أخر ما لا يحيط به العبارة ولا تفيد فيه الإشارة، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إذا أراد الله تعالى رحمة عبده، ونقله من حالة الحجب إلى حالة الفتح، حصل للأولياء ﷺ خوف عليه؛ لأنهم لا يدرون هل يموت بالفتح لكونه لا يطيقه أو لا يموت؟ وإذا لم يمت، فهل يسلب عقله أو يبقى عليه عقله؟ ومعنى سلب العقل أن يذهب العقل مع الأمور العظام التي يشاهدها، وينقطع عن الذات بالكلية بحيث لا يرجع لها، ومعنى عدم سلبه: أن يذهب شيء من نوره مع ما شاهد ويبقى شيء منه مع الذات يحفظ عليها أكلها وشربها، وكيف تلبس ثوبها، وكيف تنظر في مصالحها.

قال ﷺ: ولا يعلم أحد كيف يصير أمر هذا الذي أراد الله رحمته إلا شيخه.

* **قلت**: ولم يقع لذي الفتح الخروج عن مركزه حتى يموت أو يزول عقله؟

فقال ﷺ: إذا فتح على العبد شاهد ما لا يطيق من عالم الملائكة والجن والشياطين، ورأى من الصور الفظيعة، وسمع من الأصوات الهائلة ما تنفلق به كبده.

قال ﷺ: وكم رجل يكون في حانوته يبيع فيها فيفتح الله عليه، فيرى ما لا يطيق

---

(١) في (ب) بمشهابين.
(٢) بشهاب.
(٣) بشهاب.

فيموت من حينه، فيظن الناس أنه مات فجأة من غير سبب، وهو إنما مات من الفتح.

وذكر لنا ﷺ مرة أنه بينما هو يمشي في سوق العطارين بفاس، فنظر إلى رجل في حانوته يبيع الحناء، ففتح الله عليه فصعق لحينه ومات، فظن الناس أنه مات فجأة وهو مات على الولاية.

فقلت: وأي فرق بين من [مات و] ذهب عقله لأجل الفتح، وبين من ذهب عقله لغير ذلك؟

فقال ﷺ: أمّا الذي ذهب عقله لأجل الفتح، فإنه في الحقيقة لم يذهب له عقل، وإنما هو غائب في مشاهدة الحق ﷻ فهو سارح في بحورها دائمًا، إلا أن الله تعالى قطع عقله عن ذاته لحكمة أرادها.

وأمّا الذي ذهب عقله لغير ذلك، فسببه أن الله تعالى إذا أراد هلاك أحد وزوال عقله ـ نسأل الله السلامة ـ قطع روحه عن مشاهدة ذاته العلية ساعة أو ساعتين، وجعلها تشاهد أفعال الذات التي هي فيها، فلا تكمل الروح ساعة في مشاهدة تلك الأفعال القبيحة الصادرة من العبد المذنب حتى يحصل لها قبض فيزول العقل بسبب ذلك ـ نسأل الله السلامة ـ فإذا دام ذلك القبض على الروح دام زوال العقل، وإن لم يدم القبض وحصل للروح بسط وجمال ورجعت إلى مشاهدة الذات العلية كما كانت قبل القطع رجع العقل لصاحبه.

فقلت: فإن العقل قد يزول للصغير الذي لم يبلغ، فكيف تكون أفعاله قبيحة أم كيف يكون مذنبًا؟

فقال ﷺ: أحوال العبد كلها ذنوب عند الروح؛ لأن مشاهدتها وما تعرفه من الحق ﷻ تقتضي أن يكون العبد ساجدًا لله دائمًا، ولا يرفع رأسه أبدًا ولا عندها في ذلك صغير ولا كبير.

قال ﷺ: والمفتوح عليه إذا جلس إليه شخصان زال عقلهما، وأحدهما ولي والآخر غير ولي، وجعلا يتكلمان، فإنه يميز الولي منهما لكلامه؛ لأنه وإن كان لا يدري ما يقول، إلا أنه قد تبدو منه أسرار من أسرار الحق ﷻ يعرفها أربابها عند سماعها بخلاف غير الولي

منهما، فإنه لا يسمع منه شيء من ذلك أبدًا، ويميز الولي منهما أيضًا بأمر آخر، وهو أن يرى روحه منبسطة أبدًا ذات فرح وسرور، ويرى روح الآخر فيه على هيئة الرجل المنقبض المنكمش رأسه الذي يتفكر في أمر نزل به وأغمه وأهمه.

قال ﷺ: والذين زال عقلهم بغير الفتح في حكم البهائم، إلا أن الله تعالى يرحمهم بدخول جنته؛ لأن الصورة الآدمية التي هم عليها تشفع فيهم، فكأنهم بهائم صوروا بصورة بني آدم، فرحمهم الله تعالى بسبب الصورة الكريمة التي صور عليها أنبياءه ورسله وأصفياءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حتى لا يكونوا ترابًا مثل البهائم.

قال ﷺ: والذين زال عقلهم بالفتح هم من الأولياء الكرام، إلا أنه لا يكون لهم تصرف مع الأولياء، ولا يكون منهم غوث ولا قطب حتى يريد الله تعالى خروج الدجال، فيجعل التصرف في يد هذه الطائفة، ويكون الغوث منهم فيفسد [الحال][1] ويختل النظام، وفي مدة تصرفهم يخرج الدجال، فإذا انقطع أمره انقطعت دولتهم ثم لا تعود لهم أبدًا، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: سألني الشيخ سيدي عبد الله البرناوي: أتعلم شيئًا في الدنيا هو أحسن من دخول الجنة، وشيئًا في الدنيا هو أقبح من دخول جهنم؟

فقلت: أعرف ما سألت عنه، أمّا الذي هو أفضل وأعز من دخول الجنة فهو رؤية سيد الوجود ﷺ في اليقظة، فيراه الولي اليوم كما رآه الصحابة ﷺ فهي أفضل من الجنة، وأمّا الذي هو أقبح من جهنم فهو السلب بعد الفتح.

قال ﷺ: فما شعرت بالشيخ سيدي عبد الله حتى أكب على رجلي، وجعل يقبلها تقبيلاً كثيرًا.

فقلت له: ما السبب في هذا التقبيل؟

فقال: لقد سألت عنها نحوًا من ثمانين شيخًا فما أجاب فيها واحد نحو جوابك.

فقلت: فإن سيدي عبد الله كان يعرف الجواب، وإنما أراد امتحان فطنة من يسأله بهذا السؤال.

---

(١) في (ب) الحلال.

فقال: نعم، كان يعرفه وإنما أراد الاختبار كما ذكرت.

* **قلت**: وإنما كانت رؤية سيد الوجود ﷺ أفضل من الجنة لما سبق بيانه.

ثم قلت للشيخ ﷺ: ولم كان السلب أقبح من جهنم؟

فقال ﷺ: ذلك بالنسبة لذي الفتح الدائم؛ بمعنى: أنه يرى السلب المزيل لفتحه الذي هو عليه أقبح من جهنم، لا بالنسبة للمسلوب بعد السلب ـ والعياذ بالله ـ فإن قلبه بعد السلب يرجع كالحجر لا يبصر ولا يعقل شيئًا مما سبق، حتى كأنه لم يشاهد شيئًا أصلاً، وتجد ذاته الخبيثة راحة وخفة من ثقل الفتح عليها.

قال ﷺ: وذو الإمارة في الدنيا إذا سلبها أحسن حالاً من هذا المسلوب ـ والعياذ بالله ـ فإن ذا الإمارة يجري على فكره جميع ما مر عليه من النعم فهو يتلذذ ولو بالتذكر فيها، بخلاف المسلوب فقد انطمس قلبه وانكسفت شمس بصيرته، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن سيدي محمد البنا وكان من أهل طرابلس بقي يطلب من يدله على الله ﷻ أربعة عشر عامًا، وما ترك موضعًا إلا أتاه، فدخل مصر والشام والعراق وقسطنطينية وبلاد الهند، وما سمع بولي إلا أتاه، فيأتي من هو مشهور في الناس بالولاية مذكور بها فلا يجد عنده شيئًا، وذلك أنه سمع الحق من أبيه وكان من العارفين، ولما لم يقع له فتح على يده جعل يطلب عارفًا يدله على الله ﷻ فجعل يطلب على بصيرة ولا يكترث بشيوع ولا شهرة.

فذكر أنه لقي رجلاً بالعراق وقد اجتمع عليه من الخلائق ما لا يحصى عدده، وكانت له زاوية للوارد والصادر يطعم فيها كل يوم ما يقرب من مائتي مد من الطعام من كثرة الواردين، واتخذ في زاويته خلوة للعبادة والركوع والسجود بحيث إنه لا يخرج منها إلا في الثلاثة الأيام الأخيرة من الشهر، وأمّا في السبعة والعشرين يومًا فليس إلا الركوع والسجود، وفي الخلوة طاقة يمد له منها النقيب الطعام الذي يأكله، وجعلوا في الخلوة موضعًا للخلاء والطهارة، وأقاموا له أمر الخلوة في كل ما يحتاجه حتى لا يحوجه إلى الخروج، فيلزم خلوته المدة المذكورة فإذا تمت خرج في الأيام الثلاثة المذكورة فيتكلم مع الواردين في حوائجهم الأسبق فالأسبق، حتى يفرغ منهم جميعًا، فإذا تمت الثلاثة أيام واستهل الشهر رجع لخلوته، فأقام فيها سبعة وعشرين يومًا، هذه عادته في دهره.

فلما سمعت به رحلت إليه وصبرت حتى خرج وتكلم مع من سبقني، فلما بلغتني النوبة.

قال لي: ما حاجتك؟

* **قلت**: يا سيدي أسألك عن مسألتين إحداهما: تتعلق بالنبي ﷺ والأخرى: برب العزة ﷻ.

فقال: هاتهما.

فقلت: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١-٢].

فأثبتت الآية الذنب المتقدم والذنب المتأخر، وصرحت بأن المغفرة تعمهما معًا وتشملهما جميعًا، مع أن النبي ﷺ معصوم قبل النبوة وبعدها، فلا ذنب له أصلاً، فكيف يفهم هذا مع الآية الشريفة؟

فقال: إن الذنوب منها ما هو ثقيل، ومنها ما هو خفيف، فالثقيل كالزنا وشرب الخمر ونحوهما لا يصدر من النبي ﷺ والخفيف مثل الميل إلى بعض نسائه وتفضيل بعضهن على بعض في القسمة ونحو ذلك من الذنوب الخفيفة، فهي التي تصدر منه، وهي المتقدمة والمتأخرة المغفورة في الآية.

قال: فعلمت أنه جاهل بمقام النبي ﷺ والعارف لا يكون جاهلاً بشرف النبي ﷺ ولا بعصمته من الصغائر والكبائر؛ وذلك لأن الذنوب لا تصدر إلا من المحجوبين أهل الغفلة والظلام، ولا تصدر من العارفين أهل القرب والمشاهدة، فكيف بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فكيف بسيد الوجود، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ثم قال: وأمّا المسألة الثانية فقلت فإن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:٤]، فما معنى هذه المعية؟

فقال: المراد بهم المؤمنون، والله تعالى في قلوب المؤمنين يبتهلون إليه ويذكرونه دائمًا ويعبدونه، فعلمت أنه جاهل بربه ﷻ وأنه من المبطلين.

قال: وذهبت لرجل في ناحية الهند، وقد ذكر لي من عبادته وزهده ما يتجاوز الحد، فبلغت إليه فوجدته كما وصفوا في العبادة والزهد حتى إنه بلغ من أمره أن هناك طعامًا

يشبه البلوط عندنا فيأكل واحدة منه بين الليل والنهار فيطوي ليله ونهاره ويتقوت بقدر بلوطة لا زائدة.

ـ **فسألته** عن الله ﷻ فوجدته في غاية الجهل به، فعلمت أنه يبني على غير أساس.

قال: وكنت ذات يوم في ساحل بعض البحور، وذلك البحر مجاور لمدينة من المدن، وقد جاءت السفن بالسلع فخرج المعاشون ليحملوا السلع على ظهورهم إلى المدينة ويأخذون الأجرة، فجعلت أنظر إليهم فوجدتهم يحملون من السلع ما هو خارج عن المعتاد مثل الفلاحين بمصر وزرزاية بفاس، فجعلت أتعجب من ذلك إذ أقبل إلي واحد منهم وكان من العارفين بالله ﷻ ولم أشعر به.

فقال مكاشفًا لما في ضميري: لا تتعجب من هذا، ولكن تعجب من قدرة الله التي ستظهر فيَّ، فذهب بحمله، فلم ينشب أن رجع ثم استلقى ومد يديه ورجليه وخرجت روحه ﷺ فأشار إلى أن القوي في الحقيقة هو الله تعالى الذي هو مالك القوي، والقدرة يعطيها ﷻ لمن شاء وينزعها ممن شاء، فمن قدرته يحق التعجب ولعظيم سطوته يجب الاستعظام ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

فقال: ولقيت جماعة من العارفين وكل منهم يدلني على الرجوع لبلادي وأن حاجتي فيها، فرجعت لبلادي.

قال شيخنا ﷺ: فلقي ببلاده من دله على أن حاجته بفاس، فأعمل الرحلة وجاء مع الركب، فلقي من فتح الله على يده، وأقام بمدينة فاس ستة أشهر وصار من العارفين وأهل الديوان ﷺ.

فقلت للشيخ ﷺ: قد فتح عليه في حياتكم ـ رضي الله عنكم ـ والولي لا يفتح عليه في حياة أبيه؛ لأن الفتح لا ينزل إلا على سر الذات، فإذا انتقل سر الذات إلى [الولد][1] وقع له الفتح، وما دام الشيخ حيًّا فإن سر ذاته لا ينتقل لأحد فلا يقع الفتح، وإذا وقع فإنه لا يثبت بل يزول سريعًا، وهذا الرجل فتح عليه في حياتكم ـ رضي الله عنكم ـ ودام فتحه.

فقال ﷺ: ما هو ولدي وإنما هو متاع الناس للناس.

---

(١) في (ب) الولي.

فقلت: ومن الناس الذين كان المتاع لهم قبله؟

فقال ﷺ: رجل بناحية مراكش كان من العارفين بالله ﷻ فمات فبقي سره عندي، فلما جاء هذا الرجل ألبسته قميصًا كان علي وأعطيته ذلك السر.

فقلت: فإن السر المذكور لا يثبت لهذا الرجل إلا بعد انتقال سر ذات الأول إليه، وهو لم يره فكيف دام فتحه؟

فقال ﷺ: يمكن الله تعالى من أودع عنده السر من أسرار الذات الأولى فيعطيها للثاني، ثم يمكنه من السر والفتح، ومع ذلك فلا ينسب إليه بالولاية، إنما ينسب إليه بالولادة من أخذ أسرار ذاته من بعده.

فقلت: والرجل الموروث بناحية مراكش ووارثه من أهل طرابلس، وهل انقطع الخير من أهل المغرب حتى يتخطاهم هذا الرجل إلى السر ويأخذه؟

فقال ﷺ: لا ترث ذات ذاتًا إلا إذا كانت مشاكلة لها في العقل والطبع والدم.

وقد كان سيدي فلان يقول: لو كانت بالقرب لكانت لولدي، ولو كانت بالقوة لكانت للسلطان، ولو كانت بالخدمة لكانت لفلان خديمي، ولكنها بموافقة العقل للعقل والطبع للطبع والدم للدم، وهي أمور لا تدرك بالكسب ولا بالعمل، وهذا الرجل كان مشاكلا لموروثه في هذه الأمور، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إذا سمعت العارف بالله يكثر أن يقول: فلان هو وارثي هو صاحب سري فعليكم به بعدي، فالغالب أنه لا يكون كذلك؛ لأن هذه الأسرار ربانية لا تجيء إلا من الوجه الذي لا يظنه الناس؛ لأن الأشياخ أدركوها والناس لا يظنونهم أهلاً لها، فكذلك تخرج منهم.

ثم حكى حكاية النفر الثمانية الذين كانوا يخدمون شيخًا لهم داريًا بالله ﷻ واستمر على الخدمة سبعة، وعجز الثامن فصار لا يقدر على شيء أينما يوجهه لا يأتِ بنافعة، وأدمن على الخدمة ثلاثة ومضوا على ذلك، وزادوا على الأربعة بأن أهدى كل واحد منهم ابنته للشيخ، وكانت بنت أحدهم بارعة في الجمال فائقة الحسن والكمال، فصار الشيخ يباشره ويكلمه ويقدمه على الجميع في الكلام وفي أي شيء، فلم يشك الناس أنه وارثه، فلما قربت

وفاة الشيخ وحضر أصحابه وكل من انتسب إليه، نادى على العاجز السابق.

فقال له: أنت صاحب السر، وفاضت نفس الشيخ وفارق الدنيا.

قال رحمه الله: ونظره إلى المرموق في أعين الناس بعين الاحتقار أكثر من رحمته، ونظره إلى المرموق في أعين الناس بعين الجلال، فلذا أهل الاحتقار أحق بالأسرار، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: كان عند ولي من أولياء الله تعالى مُريدان، أحدهما: من عامة الناس والآخر: شريف، وكلاهما غير مفتوح عليه.

فقال الولي للمريد العامي: اذهب إلى الشريف وقل له يبيع لك السر والفتح، فذهب إليه ذلك العامي.

فقال له: بع لي الفتح والسر بمائة دينار.

فقال: لا.

فقال العامي: أزيدك مائة دينار أخرى.

فقال الشريف: لا.

فقال العامي: أزيدك الخادم التي لي.

فقال الشريف: لا.

فقال العامي: أزيدك ابنتي فأزوجكها.

فقال الشريف: لا.

فقال العامي: أزيدك داري.

فقال الشريف: الآن قبلت.

فقال العامي: وأنا قبلت.

وكلاهما محجوب لا يرى شيئًا من أسرار الفتح، وإنما فعل العامي ذلك بمجرد تصديقه كلام الشيخ.

فقال العامي للشريف: نأتي لك بالشهود.

فقال الشريف:نعم.

فأتى العامي بالشهود، فقص عليهم ما أعطاه للشريف.

وقال: اشهدوا علي به.

وقال الشريف: وأنا فاشهدوا علي بأني أعطيته الفتح والسر.

فراحت البنت للشريف، وملك الدار والخادم، وأخذ المائتي دينار، وبات بخير ليلة في عقله ما مرت عليه ليلة في دهره أطيب من تلك الليلة. وأمّا العامي فبات يقطع الليل بدفع الوساوس التي تخيب له ظنه في أمر الشيخ، فما مرت عليه ليلة في دهره أظلم منها، فلما انفجر الفجر جاء الفتح والسر إلى الشريف حتى شاهده، فرأى فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلما تم نظره في ذلك وأمعن فيه غاية سلب ـ والعياذ بالله ـ فذهب الفتح إلى ذلك العامي فرجع وليا من أولياء الله ﷻ.

وأمّا الشريف البائع فإنه ما انتفع بشيء مما أخذه؛ وذلك لأنه لما وقع له السلب زال عقله، فلم يبق في لسانه إلا قوله: أين أنت؟ خذ الدار، خذ الخادم، خذ الدنانير، خذ ابنتك، وأزيدك أمي، يخاطب ذلك العامي كأنه يقول له أين أنت أرد عليك جميع ما أعطيتني وأزيدك عليه أمي، وطال عمره بعد هذه القصة نحوًا من ستين سنة وهو في ذلك مسلوب العقل، نسأل الله السلامة.

فقيل: يا سيدي إنه ذهب لا دنيا ولا أخرى.

فقال ﷺ: ومن لك بهذا فاته السر وشيء آخر لا نقوله.

وسمعته ﷺ يقول: أعرف رجلاً مسلوب العقل لا شغل له إلا أنه يرمي الحجارة إلى الهواء ويلقي لها رأسه حتى تدمغه، وأعرفه على هذه الحالة مدة طويلة ولا أعرف لأي علة يفعل ذلك، حتى عرفت السبب في ذلك، وذلك أن هذا الرجل كان يخدم السباط البالي، وكانت حانوته في عقبة الرصيف، فلقيه ولي من أولياء الله تعالى.

فقال: يا ولدي إني أريد منك أن تشتري لنا قلنسوة جديدة، فخذ هذه الدراهم

واشتر لي بها ما قلت لك، وهو لا يعرفه، فأخذ ذلك الرجل الدراهم والولي ينتظره، فاشترى الرجل قلنسوة وجاء بها إلى ذلك الولي، فسولت له نفسه في الطريق.

وقالت له: هذا الرجل الذي أعطاك الدراهم لتشتري بها قلنسوة أحمق، كيف أمنك وهو لا يعرفك؟ فالبسها ولا تذهب إليه.

قال: فلبسها وأزال قلنسوة بالية كانت على رأسه، فباعها بنحو الموزونتين، وذهب إلى حانوته للخدمة.

فلما علم الولي أنه خان وغدر، تركه إلى الغد فجاءه إلى حانوته واستغفله فقلع القلنسوة من رأس ذلك الخائن، وقال له: انظر إلى ما فاتك من الله ﷻ وفر من بين يديه، فنظر إليه ذلك الخائن فوقع له الفتح، فرأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلما رد بصره إلى حانوته وقع له السلب ـ والعياذ بالله ـ فعلم أن الآفة جاءته من رأسه، فجعل يفعل ذلك الفعل برأسه وقد زال عقله، وبقي كذلك على هذا الفعل إلى الآن؛ يعني: أنه في قيد الحياة.

وقد أراه [لي] الشيخ ﷺ مرة، فقال: هذا هو صاحب الحكاية، فرأيت الصفة التي قال الشيخ ﷺ والله أعلم.

ـ وسألته ﷺ عن السر الذي يشير إليه القوم؟[1]

---

(١) قال الشيخ القاشاني في باب السر: السرُّ: يعني به حصة كل موجود من الحق بالتوجه الإيجادي المنبه عليه بقوله تعالى: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ) الآية، فقولهم: لا يحب الحق إلا الحق، ولا يطلب الحق إلا الحق، ولا يعلم الحق إلا الحق، إنما أشاروا بذلك إلى السر المصاحب من الحق للخلق، على الوجه الذي عرفت، فإنه هو الطالب للحق والمحب له، والعالم به. قال ﷺ: «عرفت ربي بربي».

سر العلم: يطلق بإزاء حقيقة الحال، وهو ما يقع به الإشارة من الأشياء التي تكون مصونة مكنونة بين العبد وبين الحق، وعليه يحمل معنى قولهم: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم، ويقولون: صدور الأحرار قبور الأسرار.

سر السر: ما انفرد به الحق عن العبد، بحيث لا يكون لغير الله اطلاع عليه.

سر التقديس: هو سر العلوّ الحقيقي الذي عرفته في باب تقديس الحق عن العلوين.

السر المصون: يعبرون به عن غيب هوية الذات الأقدس، وإطلاقها، فإن كنه الذات، تعالى، يجِلُّ أن يدخل تحت علم، أو أن يحاط به، أو أن يدرك من حيث ذاته أصلاً، فهو السر المصون عن الإدراك والإحاطة.

=

سر التجليات: يشيرون به إلى كل شيء في كل شيء، وكيفية حصول هذا الشهود أن يتجلى للقلب عين التجلي الأول الذي له أحدية الجمعية بين جميع الأسماء الكلية، والجزئية، والأصلية والفرعية، والذاتية والصفاتية، بحيث يشاهد شهوداً ذوقياً أن كل اسم منها يشتمل على الجميع اشتمالاً حقيقياً، على الوجه الذي عرفته في باب توحيد الأسماء وتكثرها، فإذا توحدت في شهود هذا المشاهد من جهة الحقيقة الجامعة لها، وهي الذات الواحدة، التي لا كثرة فيها بوجه شاهد كل شيء في كل شيء يظهر له معنى ما قصدته بقولي: كل شيء في كل شيء ظهرت مع غاية النزاهة... الخ.

سر العبادات: يعني به أسرار العبادات التي افترضها الله تعالى على عباده من الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج. وتقرير ذلك هو: إنه لما كان الغاية من وجود الإنسان، إنما هو وصوله إلى مرتبة الكمال التي هي الغاية من إيجاد الحق تعالى له، وكان ذلك لا يصح إلا لمن كمل حضوره مع ربه، وبدل كل ما سواه من حبه تعالى، وبالغ في تطهير نفسه عما لا يليق بحضرة قدسه تعالى، وهجر كل شاغل يشغل من الأوطان والإخوان، ولم يكن ذلك في وسع أكثر الناس، بل ولا يجوز ذلك لكلهم، أنعم الله سبحانه على عباده ولطف بهم، فإنه هو الخبير بحالهم الرؤوف بهم، فافترض عليهم ما افترضه من عبادته التي لم يكلفهم منها إلا بقدر وسعهم ليكون ذلك وسيلة لهم إلى نيل هذه المقامات، ولهذا لما علم تعالى بضعف الإنسان عن الحضور التام مع ربه على الدوام فرض عليه الصلوات في خمسة أوقات في اليوم والليلة لئلا يحرم القرب من جنابه، والحظوة بحضرة مناجاته، فَكَفَّر عن عبده بحضوره في هذه الأوقات الخمسة، التي افترضها عليه باقي أوقات يومه وليلته. وهكذا لما علم من عبده الضعف عن بذل ماله جميعه فرض عليه البذل لربع عُشْره فيما لا حظَّ فيه لنفسه، بل طلباً لمرضاة ربه في الجهة التي أذن وأمر بالبذل فيها، لئلا تستغرقه محبة الباطل، وتشغله عن المحبوب الحق، عز شأنه، فكفر عن عبده ببذل هذا القدر من ماله باقي ما تخلف منه في يده. وهكذا لما علم تعالى ضعف العبد عن دوام التشبه بعالم قدسه، وعن دوام الاتصال بحضرة إلاهيته، وهجره لمقتضيات وهمه، وحسه، فرض عليه صوم شهر واحد من سنته لعلمه بضعفه عن استغراق الصوم أيام عمره، ففرض عليه هذا الشهر لئلا تستهلك لطيف روحانيته في كثيف جسمانيته، فيمتنع بذلك عن الدخول في الروحانيين المعتكفين على حظيرة قدسه، فكفر عن عبده بإمساكه عن مشتهياته من الأكل والشرب والنكاح في هذه المدة المعينة باقي أيام عمره، وهكذا لما علم تعالى ضعف عبده عن التجريد والتفريد بالكلية، وخروجه عن أوطانه، وهجرته لأهله وأخوانه فرض عليه عند استطاعته لزيارة بيته أن يزور مرة واحدة في عمره، وذلك لئلا يستغرقه حب الأهل، والاشتغال بهم عن ربه تعالى. قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ) الآية.

فصار العبد بذلك من أهل الهجرة إلى ربه، والسفر إلى حضرات قدسه، فكفّر الله تعالى عنه بالقصد إلى زيارته مرة واحدة في عمره ما بقي منه، وما فاته فيه من الهجرة عن الأوطان، وهجران الأهل والخلان حباً لربه، واعلم أنه تعالى لو لم يعيّن فرائضه على عباده لما صحت منهم عبادته، لأن لافتراضه تميّز المطيع الممتثل للأمر ممن ليس كذلك، ولئلا يكون الإنسان جاهلاً بما هو فرض عليه، فمهما فعل فإنه لا يعرف أنه مما رقى بالعبودية إلى ربه.

سر القدر: يشيرون به إلى أن حكم الله تعالى في الأشياء، وعليها، إنما هو بها.

=

وتقرير ذلك: هو أنه لما كان القضاء عبارة عن حكم الله في الأشياء على ما أعطته من المعلومات، مما هي عليه في نفسها. والقدر توقيت ما هي عليه الأشياء في عينها من غير مزيد، فما حكم القضاء على الأشياء إلا بها، وهذا هو عين سر القدر ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ الآية، ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ فالحكم في التحقيق تابع لعين المسألة التي يحكم فيها بما يقتضيه ذاتها. فالمحكم عليه بما هو فيه حاكم على الحاكم أن يحكم عليه بذلك، وكل حاكم محكوم عليه بما حكم به، أن يحكم به، كان الحاكم من كان، فتحقق هذه المسألة، فإن القدر ما جهل إلا لشدة ظهوره فلم يعرف، وكثر فيه الطلب والإلحاح.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، وهو الاستحقاق الذي يطلبه الخلق، فإن الله أعطى كل شيء خلقه، فينزل بقدر ما يشاء، وما يشاء إلا ما علم فحكم به، وما علم إلا ما أعطاه المعلوم. فالتوقيت في الأصل للمعلوم، والقضاء، والعلم، والإرادة، والمشيئة كل ذلك تابع للقدر.

فسرُّ القدر من أجَلّ العلوم، وما يفهِّمه الله إلا لمن اختصه بالمعرفة التامة. فالعلم به يعطي الراحة الكلية للعالم به، ويعطي العذاب الأليم للعالم به أيضاً، إلا لمن أشهده الله عينه الثابتة، لأنه من أكابر السعداء. فهذا الشخص يسميه شيخنا: صفاء خلاصة خاصة الخاصة، كما ذكر ذلك في (الفص الشيثي) من كتاب «فصوص الحكم»، فكان العلم بسر القدر يعطي النقيضين، وبه وصف الحق نفسه بالغضب والرضى، وبه تقابلت الأسماء الإلهية. فحقيته تحكم في الوجود المطلق والمقيد لا يمكن شيء أتم منها، ولا أقوى ولا أعظم لعموم حكمها المتعدي وغير المتعدي. قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي بالذين أعطوه العلم بهدايتهم في حال عدمهم بأعيانهم الثابتة. فأثبت أن العلم تابع للمعلوم، فمن كان مؤمناً في ثبوت عينه وحال عدمه ظهر بتلك الصورة في حال وجوده. وقد علم الله ذلك منه أنه هكذا يكون، فلذا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فلما قال هذا قال أيضاً: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ لأن قولي على حد علمي في خلقي: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: ما قدّرت عليهم الكفر، الذي يشقيهم ثم طلبتهم بما ليس في وسعهم أن يأتوا به، بل ما علمناهم إلا بما أعطونا من نفوسهم مما هم عليه، فإن كان ظلماً فهم الظالمون، ولذلك قال: ﴿أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فما ظلمهم الله، فافهم ما ذكرنا تعرف سر القدر، فقد أوضحنا لمن علم.

سر الكمال والأكملية: يشيرون به إلى أن الكمال الأسمائي لا يوجب للذات نقصاً. وتقرير ذلك هو: أن الحق تعالى له كمال ذاتي لا يتوقف ظهوره على غيره تعالى، وله كمال أسمائي يتوقف ظهوره على غيره تعالى، إيجاد العالم، كما سيأتي إشباع القول في الكمالين في باب الكاف. فالذي ينبغي أن تعلمه ههنا أن الكمالين هما من حيث التعين أسمائيان، وذلك أن الحكم من كل حاكم، أي حاكم كان لا بد وأن يكون مسبوقاً بتعيين المحكوم عليه في تعقل الحاكم، فلولا تعقل الحق قبل إضافة الأسماء إليه وامتيازه بغناه في ثبوت وجوده له عن سواه لما حكم بأن له كمالاً ذاتياً، ولا شك أن كل تعين يتعقل للحق، فإنه اسم له، فإن الأسماء ليست عند المحقق إلا ما عرفته في بابها من كونها تعينات الحق، فإذاً كل كمال يوصف به الحق فإنه يصدق عليه أنه كمال أسمائي من هذا الوجه. وأما من حيث انتشاء أسماء الحق من حضرة وحدته فهو من مقتضى ذاته، فإن جميع الكمالات التي يوصف بها هي كمالات ذاتية، وإذا تقرر هذا فنقول: من كان له هذا الكمال من ذاته، فإنه لا ينقص بالعوارض،

فقال ضاربًا مثلاً: الذهب يكون عند الملك ولا يعطيه لكل أحد، وإنما يعطيه لأهل [الخصوصية][1] من رعيته.

=

واللوازم الخارجة في بعض المراتب بمعنى أنها تقدح في كماله، ولا جائز أن يتوهم في كماله نقص أيضاً، بحيث يكمل بها بل قد يظهر بالعوارض واللوازم في بعض المراتب وصف أكملية، ومن جملتها معرفة أن هذا شأنه.

سر الربوبية: هو ما أشار إليه سهل بقوله: «إن للربوبية سراً لو ظهر لبطلت الربوبية»، وتقرير ما ذكر هو أن المربوب لما كان هو الذي يبقى على الرب ربوبيته لكون الربوبية نسبة بين الرب والممكن، كما عرفت في باب أغمض المسائل من أن الأعيان معدومة في نفسها، فلو ظهر هذا السر للخلق لبطل عندهم ما يترتب عليه الربوبية.

سر سر الربوبية: يشيرون به إلى سرٍ هو أعلى من هذا السر الذي ذكر للربوبية. فهو سرُّ السرِّ المفهوم منها. وتقريره: هو أن الربوبية، وإن كان تحققها متوقفاً على المربوب الذي هو عين معدومة في نفسها، لكنه لما كان مظهراً لربه الظاهر بأحكام تعيناته التي هي الأعيان الثابتة لم يصح لأجل هذا أن تبطل الربوبية، لأنها نسبة بين الرب والقائم بربه، وبهذا الاعتبار يطلق على العبد بأنه موجود عند من أطلق عليه اسم الموجود من أهل الله، لا كما يفهم من ليس له هذا الكشف العالي الذي هو أغمض العلوم، كما عرفت في باب أغمض المسائل من أنه لا وجود إلا لله وحده، وأن الأعيان معدومة لنفسها، بل عينه ما زالت معدومة، لا يصح غير ذلك بل معنى كونه موجوداً في ذوق الكمال هو أنه ظهر الوجود الحق به، وبأحكامه، فلما صار مظهراً للوجود الحق صار يسمى موجوداً بهذا المعنى. فالحاصل هو أنه لما كان سر الربوبية الذي ذكره سهل هو أن تحقق الربوبية يتوقف على العين المعدومة، فلو ظهر هذا السر لبطلت الربوبية لبطلان ما يترتب عليه، إلا أنه لما كان قيام الربَّيَّة والمربوبية كلاهما بذات الحق لم يصح بطلان الربوبية، وظهور سر الربوبية يوجب بطلانها عند من لم يظهر له هذا السر الثاني المستتر في الأول، ولهذا كان الثاني هو المسمى بسر السر المفهوم من الربوبية، فكان سر سرها موجباً لإثباتها. وقد بيّن الشيخ هذين السرّين في بيتين كلاهما في الفتوحات، هما:

الرَّبُّ حَق، والعَبْدُ حَقٌّ يا لَيْتَ شِعْرِي من المُكَلَّفْ
إنْ قُلْتَ عَبدٌ فَذَاكَ مَيْتٌ أوْ قُلْتَ رَب أنَّى يُكَلَّفْ

فيفهم مما ذكر الشيخ هنا أنك إذا نظرت إلى الرب وحده، أو العبد وحده بطلت الربوبية لبطلان المربوب المعبر عن بطلانها بقوله: «إن قلت عبد فذاك ميت»، أما إذا نظرت إلى قيامه بربه وإلى كونه مظهراً له صح تكليفه، لأن المكلف عبد هو مظهر لرب، فثبتت الربوبية بظهور سرُّ سرّها، فافهم ذلك، وتدبر معنى قول الشيخ أيضاً:

العَبْدُ عَيْنُ الحَقِّ لَيْسَ سِوَاهُ والحَقُّ عَيْنُ العَبْدُ لَسْتَ تَرَاهُ
فانظُرْ إلَيْهِ بِهِ على مَجْمُوعِهِ لا تَفْرِدَنْهُ فَتَسْتَبِيحَ حِمَاهُ

(١) في (ب) الخصومة.

قال: فكذلك السر لا يعطيه الله تعالى إلا للمصطفين من خلقه.

فقلت: وهل هو الفتح؟

فقال ﷺ: الفتح زائد عليه يقوى معه السر، فإن المفتوح عليه يفتح عليه في بصره فيرى به السموات والأرضين، وفي سمعه فيسمع به الطير إذا خفق بجناحه في جو السماء، والنملة إذا حركت رجلها من مسيرة عام، ويفتح له في شمه فيشم رائحة التراب وكل تراب له رائحة، ورائحة الماء، ورائحة الذوات [الميتة][1]، ورائحة الأرواح، ورائحة الذوات الحية، ورائحة الأشياء كلها، ويفتح له في ذوقه فيذوق من غير ملاقاة طعوم الأشياء المتقدمة، وكذا يفتح له في لمسه، ويفتح له في سمعه أيضًا فلا تختلط عليه الأصوات، ولا يشغله سمع عن سمع، حتى أنه يفهم ويسمع ما يقول في آن واحد آلاف من الناس، فإذا كان السر المتقدم مع الفتح اجتمع قوتان وجهدان، وإذا كان السر وحده مع الحجاب فهو سر ولكن صاحبه لا يقوى قوة المفتوح عليه.

فقلت: وأي شيء يحصل في الذات إذا حصل السر فيها من غير فتح؟

فقال ﷺ: يحصل فيها شبه أوصاف الحق ﷻ فترى الذات مطبوعة على الحق لا تعلم إلا الحق، ولا تتكلم إلا بالحق، مع الاتّصاف بعليّ الصفات ومكارم الأخلاق من حلم وعفو وتجاوز وحياء وكرم، وغير ذلك من الأخلاق الزكية والخلال المرضية، فإذا زاد الفتح على هذا السر حصل ما سبق من القوتين والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إنَّ الفتح إذا أنزل على الذات قبل نور القوة حصل في الذات خلل وضعف يفضي إلى ما سبق من موت أو زوال عقل، وإذا نزل على الذات نور القوة أولاً، ثم نزل بعده نور الفتح لم تتضرر الذَّات بالفتح.

فقلت: وما هذه القوة؟

فقال ﷺ: وقد [نظر][2] إلى عشبة ضعيفة: لو أمدَّ الله هذه العشبة الضعيفة بالقوة التي نتكلم عليها لأطاقت حمل ذلك الجبل ـ يشير إلى جبل كان أمامنا ـ فالموفّق يطلب من

---

(١) سقطت من (أ).

(٢) أشار.

الله تعالى أن ينزل عليه نور القوة قبل نزول نور الفتح عليه والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: إني دخلت على سيدي منصور في بداية أمري، وكان غزليًّا؛ أي: يتعاطى صنعة نسج الكتان، فوجدته يبكي.

فقلت له: ما يبكيك؟.

فقال: أي شيء نصلح له، إني أشاهد الآن فعل الله تعالى في حالة النسج، فكنت أظن أني أصنع شيئًا فإذا غيري هو الذي يصنعه.

فقال ﷺ: ولم أدرِ ما أقول له، [ولو كان اليوم لعرفت ما أقول له].

فقلت له: وأي شيء كنت تقول له؟

فقال ﷺ: أقول له اطلب الله في الزيادة، فإنّك الآن في مشاهدة الحوادث؛ لأن أفعاله تعالى من جملة مخلوقاته الحادثة.

فقلت: وهل ترقَّى سيدي منصور عن هذه الحالة؟

فقال ﷺ: عليها مات رحمه الله والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول: لو علم الناس أوصاف سيدي عمر ـ يعني شيخه ـ لما زاروا غيره من الأحياء كسيدي فلان وسيدي فلان، فإنه كانت فيه أربعة أوصاف لا تكاد توجد في غيره:

الأول: أنه لا يتكلم في أحد، ولا تراه قط يذكر أحدًا بسوء لا في سر ولا في علانية.

الثاني: العزلة، فإنه منقطع طول عمره في سيدي علي بن حرزهم، فهو على قراءة دلائل الخيرات أو تسبيحه دائمًا بحيث لا يفتر، ولا يذهب لداره إلا بقرب المغرب، وإذا كثر الزوَّار خرج عن الروضة إلى السِّدرة المحررة التي بإزاء باب الروضة، فينقطع عن الخلق ويقبل على شأنه.

الثالث: ترك الفضول، ولا ينسب لنفسه قليلاً أو كثيرًا، حتى أنَّ كل من يزور سيدي علي بن حرزهم، ولا سيما من يبيت كل ليلة جمعة فيه، فإنهم لا يظنون فيه شيئًا من السِّر أصلاً، وإذا جاءوا لزيارة سيدي علي وكان حاضرًا وطلبوا الفاتحة فإنما يطلبونها من

سيدي علي ويوافقهم هو على ذلك، ولا يطلبون قط منه فاتحة ولا غيرها.

الرابع: الزُّهد في الدنيا، فإني رأيته منذ خالطته يطلع لسيدي علي عند الصبح، ولا يأتي معه بشيء حتى بطرف خبز، وإذا جاء للسيد علي شيء أكل منه ما تيسّر وإلا ظل يومه طاويًا، وكنت أراه إذا وجد طرفًا من خبز يأخذ شيئًا من زيت السيد، ويجعل عليه شيئًا من الملح ويجوز به، فإن لم يجد زيتًا حله في الماء و[أكله] والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إنَّ في الأولياء خصلة لو علمها الناس وعلموا ما فيها من الراحة لدفعوا كل ما عندهم، وهي أنَّ الولي ما لم تنزل به النازلة لا يهتم [لها][1]، ولا يتكدر حاله من أجلها، ولو ظنَّ أو تيقَّن أنها تنزل به عن قريب لساعة أو أقل فإنها في نظره بمنزلة العدم، لا شعور له بها أصلاً، فتراه يشاهد ما ينزل به في المستقبل، وهو يأكل ويشرب ويضحك ويأتي امرأته، بمنزلة الجاهل الذي لا بصيرة له أصلاً، ولا علم عنده بما سيكون رأسًا.

وذلك أنهم ﷺ يعلمون أنَّ تصرفه تعالى لا يحيط به أحد، فينفذ تعالى في تصرفه ما لا يظنونه كائنًا، ويقطع تعالى من تصرفه ما يرونه واقعًا، فهم يشاهدون تصرفه المطلق الذي لا تقييد فيه بوجه من الوجوه، وفي هذه الخصلة راحة لا تكيف، وإذا كان هذا حال الولي المفتوح عليه المشاهد للأمور ووقوعها، فكيف ينبغي أن يكون حال المحجوب؟ فمن الواجب عليه أن يسلك بنفسه مسلك الولي، فيطرح الهموم من قلبه ويستريح من هم التدبير وسوء التقدير، مع عدم الفائدة في تدبيره والله أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن الولي الذي تكون له ثلاثمائة وستة وستون ذاتًا؟

فقال ﷺ: هو الوارث الكامل: يعني الغوث فقط.

فقلت: وموروثه ﷺ له مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ذات، فما بال الغوث لم يرثها كلها؟

فقال ﷺ: لا يطيق أحد ما يطيق النبي ﷺ.

قال ﷺ: ومعنى الوراثة في الغوث أنه لا ذات شربت من ذات النبي ﷺ أكثر من ذاته والله أعلم.

---

(١) في (أ) بها.

وسمعته ﷺ **يقول**: إنَّ أهل الفتح الكبير يغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخَّر، و[حسناتهم][1] مقبولة، وسيئاتهم كلها ترجع حسنات إذا فعلوها قبل الفتح، وأمَّا بعد الفتح فإنها لا تصدر منهم معصية؛ لأنها لا تصدر إلا من المحجوبين وهم ﷺ في مشاهدة الحق دائمًا، ولأجل أن مشاهدة الحق تمنع من المعصية كان الملائكة ﴿**لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦] والله أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن صلاة العارفين ﷺ كيف هي؟

فقال ﷺ: إذا قال الله أكبر وصلى بهذه الذات الظاهرة، صلت معه ذات الروح في ذاته تركع بركوعه وتسجد بسجوده.

قال ﷺ: فجعلت أنظر إليها وإلى الذات الظاهرة أيهما أقرب إلى الأرض، فأردت أن أحقق أيهما أقرب إلى الأرض فنهاني الحافظ عن ذلك، وصلاة الروح مقبولة على كل حال.

فقلت: لأنها لا ترى فلا يدخلها رياء؟

فقال ﷺ: لا، بل لكونها حقا من الحق إلى الحق، وصلاة الظاهر إنما شرعت لعجز أكثر الخلق عن صلاة الروح، والعارفون ﷺ وإن كانوا يصلون بأرواحهم فإنهم يصلون بذواتهم أيضًا لجري العادة بذلك وحفظًا لظاهر الشريعة.

ثم ضرب مثلاً بمن يخدم صنعة الدرازة ليجعلها وسيلة إلى تعلم صنعة الحرارة، ثم فتح الله عليه في صنعة الحرير بلا شيخ ولا تعلم أصلاً، فبقي مغمورًا في جملة الدرازين وتفرض لهم زيًا وعوائد وأمورًا يعرفون بها وتجري على ظواهرهم، فترك هذا الرجل المفتوح عليه في صنعة الحرير زيهم، فسألوه عن ذلك.

فقال: لأني رجعت حرارًا، وسبق في علم الله أن فتح عليه فيه، وزاد عليهم بمعرفة لا تظهر إلا يوم القيامة، فمن اللائق بهذا الرجل أن يتبع عادة الدرازين ويتعاطى زيهم ويبقى على حالته الأولى، والله أعلم.

ـ **وسألته** ﷺ عن فلان من أهل القرن العاشر.

فقال ﷺ: إنه فتح عليه ووقف به الحال فرجع ساحرًا من جملة السَّحرة.

---

(١) في (أ) أعمالهم.

فقلت: وكيف ذلك؟

فقال ﷺ: أول ما يفتح على العبد يرى معاصي العباد وأسبابها، وكيف يقعون فيها، والضبابة الظلمانية التي تستمد منها ذوات أهل الظلام ـ والعياذ بالله ـ ونحو هذه الأمور.

فإذا أراد الله بصاحب هذا الفتح شرًّا ركن عقله إليها وأدام الفكر فيها، فإن وقف به الفكر فيها ساعة واحدة وانقطع ـ والعياذ بالله ـ فلا يبقى في نظره سوى ما سبق ذكره في الفتح، وذلك الذي سبق هو مخيم الشياطين ومحل فتنتهم لبني آدم، فيصير مشهده ومشهد الشياطين واحد، فيصيرون معه يدًا بيد، فيسخر على يده السحر ويرجع من جملة السحرة، وإذا أراد الله بصاحب الفتح خيرًا فتح عليه ما يشغل فكره عما سبق، وهكذا لا يزال يرقيه في كل لحظة إلى ما لا نهاية، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول:** شأن الفتح عجيب وأمره كله غريب، وكم من عبدًا لله [محبوب][1] عند الله يمنعه الله ﷻ من الفتح رحمة به، وذلك أن في الفتح أمورًا إذا شاهدها المفتوح عليه قبل أن تطيب ذاته وتصل ففي ساعته يرجع ـ والعياذ بالله ـ بها نصرانيًا، وفيه أمور إذا شاهدها يرجع بها ـ والعياذ بالله ـ يهوديًا، وكم من رجل لا يفتح عليه إلا عند خروج روحه، وكم من رجل يموت غير مفتوح عليه ويبعثه الله على حالة هي أكمل وأكبر من حالة المفتوح عليه.

وقال مرة لبعض أحبابه: هذا هو الحمل الكبير الذي خزنوه في هذا التابوت، يشير إلى المعنى السابق.

وسمعته ﷺ **يقول لهذا الحبيب:** إن لك حسنات عظيمة جسيمة إذا رأيتها غبطتك فيها.

ومرة قال له: هل لك أن تقسم معي حسناتك، فإني لا أزال أتعجب منها ومن عظمها.

وكان ﷺ يقول: إنه يزال عن المفتوح عليه حين الفتح شيء شبه السلخ الأسود، وهو الظلام المحيط بالذات كلها، فإذا زال ذلك السلخ صب على الذات نور الفتح، وهو كبكبة عظيمة يأتي بها من شاء الله من الملائكة، وقوم آخرون يشتغلون بزوال السلخ، والملائكة حاملة للسر، وبنفس زوال السلخ تضع الملائكة النور في الذات.

---

(١) في (ب) محجوب.

وفي وقت زوال السلخ تُدهش الخلائق على المفتوح عليه، لجهلهم بعاقبة أمره من موت أو زوال عقل أو سلامة، فلا يزالون يتضرعون إلى الله تعالى في أن يرزقه القوة والتأييد والتوفيق لحمل ما طوقه.

وكان ﷺ **يقول:** إن نور الفتح يكون في ذات الشيخ، فإذا قدر عليه وارثه في آخر حياته أخذه بعد انفصال الشيخ عن هذه الدار، وإن لم يقدر عليه بقي أمانة عند سيدنا جبريل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ إلى أن تطيقه ذات المريد فيزال عنه السلخ ويأخذ السر.

وكان ﷺ **يقول:** إن سيدنا جبريل ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يخالل المفتوح عليه قبل الفتح ثلاثة أيام يؤنسه، محبة في النبي ﷺ ويسدده للطريق، إلى غير ذلك من الأسرار التي ذكرها ﷺ في شأن الفتح، وإياك أن تظن أن في ذكر سيدنا جبريل ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ هنا إيحاشا كما يقوله ساداتنا الفقهاء ﷺ ويشددون النكير على من يزعم أنه يشاهد الملائكة، فقد ردَّ ذلك عليهم طائفة أخرى من الفقهاء ﷺ بأنه لا محال فيه ولا مزاحمة فيه للجناب العلي الشريف البهي.

وأيدوه بحكاية الصحابي الكبير الجليل [الشهير] سيدي عمران بن حصين الخزاعي ﷺ وقوله إنه كان يشاهد الملائكة ويسلمون عليه، فلما اكتوى انقطعوا عنه، ومما عده الشيخ الشعراني ـ رحمه الله ـ في كتابه «المنن» منة عظيمة أن جمعه الله مع من يشاهد جبريل ويكلمه، ولو سكت من لا يعرف عن الكلام فيما لا يحسنه لخرج إلى الناس علم عظيم وخير كثير.

وليت شعري ما يقول من يمنع ذلك في الأخبار الصحيحة المتفق عليها التي أخرجها البخاري وغيره، المصرحة بوقوع ذلك لغير هذه الأمة، فكيف يمنع ذلك في حق هذه الأمة الشريفة؟ وانظر أخبار بني إسرائيل في صحيح البخاري وغيره، والله تعالى أعلم.

ثم آن لنا أن نذكر بعض الأمور الباقية النورانية التي يشاهدها صاحب الفتح الكبير، مثل البرزخ، والجنة، والنار، والصراط، والحوض، والأرواح، والملائكة، والحفظة، والأولياء، وغير ذلك فنقول: